شرح "كشف الشبهات"

الدرس الأول

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه؛ أما بعد...

فاليوم معنا كتاب جديد من كتب العلم؛ وهو كتاب "كشف الشبهات"، هذا الكتاب من الكتب المقررة عندنا في معهد الدين القيم، ونحن الآن في المستوى الرابع، وأنهينا بفضل الله تبارك وتعالى ومَنِّه وكرمه علينا ثلاثة مستويات، وكان مقرراً في هذه المستويات في مادة التوحيد كتاب: "الأصول الثلاثة" و"القواعد الأربعة" وكتاب "التوحيد"، والخاتمة هو هذا الكتاب الذي معنا وهو كتاب "كشف الشبهات"، وهو آخر كتاب في هذه المادة خاصة؛ وهي مادة التوحيد؛ فلذلك إن شاء الله سيكون شرحنا لهذا الكتاب مبنياً على ما درستم سابقاً من مواد، وهذا يعني أنني عندما أمرّ في هذا الكتاب على: (بسم الله الرحمن الرحيم)، (اعلم رحمك الله) ..الخ"؛ مثل هذه الكلمات لن أقف عندها ولن أُفسِّرها؛ لأنها كانت قد فُسِّرَت وشُرِحَت في الكتب الماضية؛ هذا معنى أن يكون شرحي لهذا الكتاب مبنياً على الشروح الماضية؛ وهذه الطريقة هي المتّبعة عندنا في المعهد، وأصلاً لا يُسمح لأيّ أحد أن ينتقل إلى الكتاب الذي يلي الكتاب السابق إلا أن يكون قد أنهى الكتاب السابق؛ يعني ما وصل أحد منكم الآن إلى هذا الكتاب وهو "كشف الشبهات"، ويسمع هذا الكلام إلا وقد أنهى "الأصول الثلاثة"، و"القواعد الأربعة"، وكتاب "التوحيد"؛ لذلك بنيتُ شرحي هذا على ما تَقدَّم، فهناك فرق بين أن أشرح الكتاب استقلالاً- بدايةً-، وبين أن أشرحه مُتمماً لغيره من الكتب، فطريقة شرحي في هذا الكتاب ستكون بناءً على ما ذكرتُ لكم، بناءً على أنّ

الطالب قد درس الكتب السابقة الذكر وأنهاها وامتحَن فيها ونجح في المستويات الثلاثة، والآن انتقل إلى هذا المستوى؛ وهو المستوى الرابع.

وأنا أنصحكم بدايةً وقبل أن أبدأ بهذا الكتاب: بأنْ لا تهملوا ما سبق من كتب؛ راجعوها كل مدة، ولا تهملوها تماماً؛ حتى لا تُضيّع جهدك الذي بذلتَه في دراسة هذه الكتب، لا يوجد كتاب يغني عن الكتاب الآخر تماماً؛ فيوجد فوائد في بعض الكتب لا تجدها في الكتب الأخرى، حتى "الأصول الثلاثة"- والذي هو أول كتاب في هذه المادة معنا هنا في معهد الدين القيم-؛ تجد فيه بعض المباحث لا تمر معك في كتاب "التوحيد" ولا "كشف الشبهات" ولا حتى في "القواعد الأربعة"، وإن كانت المادة واحدة بالجملة؛ لكن يوجد بعض التفاصيل مثلاً لا تجدها في غير "القواعد الأربعة"، لا في كتاب "التوحيد" ولا في "كشف الشبهات"؛ لذلك ينبغي على طالب العلم أن يبقى دائماً في حالة تواصل مع تلك الكتب؛ هذا بدايةً.

فاليوم هو الدرس الأول من دروس شرح "كشف الشبهات".

الكشف في اللغة: هو الإظهار والإزالة، وكشَفَ الشيءَ وكشَفَ عنه: رفَع عنه ما يواريه ويغطيه، وكشَفَ الأمر: أظهَره؛ هذا من حيث اللغة.

والشبهات: جمع شبهة.

والشبهة: الالتباس والاختلاط والإشكال، فاشتبَه الأمر؛ إذا التبَس واختلَطَ وأشكَلَ.

والشبهةُ هنا؛ ما يلتبس بالحق، شيءٌ يلتبس عليك لا تعرف أهو حق أم باطل، يلتبس بالحق ويصير غامضاً.

فكشفُ الشبهات؛ يعني: إزالة الباطل الذي يلتبس بالحق لرفْع اللبس وبيان الحقيقة؛ هذا المقصود مِن كشْف الشبهات؛ وهذا المراد من هذا الكتاب.

المؤلف رحمه الله: الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي، توفي في السنة السادسة بعد الألف والمائتين (١٢٠٦)، وكان رحمه الله على رأس السنة، مُجَدِّداً بعد أن انتشر الشِّرك في البلاد وبين العباد لأسبابٍ عِدّة، تعلَّم وعرف الحق من الباطل؛ فحارب الباطل بالعلم وبالسيف حتى فتح اللهُ عليه، وأزال معالم الشِّرك وحطم الأوثان، ونصره الله سبحانه وتعالى على عدوِّه، فكان مُجَدِّداً لدعوة التوحيد، وهو لم يأت بدين جديد، ولم يُكَوِّن فرقة مستقلة وطريقة مبتدَعة.

من أين تعرف هذا؟

بمقارنة ما قرَّرَه في كتبه بمنهج السلف؛ هذا هو الميزان عندنا، الميزان عندنا بارك الله فيكم هو منهج السلف؛ نَزِنُ به الأقوال، ونَزِنُ به الأشخاص، ونَزِنُ به الجماعات، فإذا قال شخصٌ قولاً؛ نأخذ هذا القول ونضعه في ميزان السلف رضي الله عنهم، وننظر هل يتوافق مع ما كان عندهم ديناً أم لا؟ فإنْ وافَق ما عندهم؛ فهو حق، وإن خالَف؛ فهو باطل؛ بغضّ النظر عن القائل، نأخذ القول ونحكم عليه بناءً على ما عند السلف.

والشخص نفسه أيضاً من خلال عقيدته ومنهجه نعرضه على السلف رضي الله عنهم، فإنْ وافَقَهم في عقيدته ومنهجه؛ فهو صاحب سنة، وإنْ خالَف؛ فهو صاحب بدعة.

والفِرَق والطوائف والجماعات كذلك، إنْ جاءت بأصل جديد مخالِف لِما كان عليه السلف رضي الله عنهم؛ فهي فِرقة ضالّة، وإنْ كان ما عندهم هو نفسه المقرَّر عند السلف رضي الله عنهم عقيدة ومنهجاً؛ فهؤلاء أهل سنة، سمّاهم أعداؤهم ما سمّوهم؛ لا يهم؛ لأن الميزان عندنا هو الذي ذَكَرْنا، فبما أنهم نجحوا في الميزان؛ فهم أصحاب الحق، وإذا فشلوا؛ فهم أصحاب الباطل؛ هكذا نحكم على الأشخاص والأقوال والجماعات، الميزان: قال الله قال رسول الله ﷺ والمنهج الذي كان عليه أصحاب النبي ﷺ وأئمة السلف من أصحاب

القرون الثلاثة الأُوَل من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين؛ فقط هذا هو الميزان، ليس صعباً، هو سهل جداً.

ما الذي تحتاجه؟

العِلم؛ تحتاج العلم حتى تستطيع أن تصل إلى الكتب التي قُرِّر فيها منهج السلف عقيدة ومنهجاً، تَعَلَّم، والكتب بين يديك؛ واحكم، سهلة ولا صعوبة في هذا أبداً، إنْ أردتَ أن تسلك الحق؛ فهذه سبيله، وهذه طرقه، وهي سهلة جداً.

يأتي شخص ويقول لك: وهابي، دعوة وهابية، دعوة كذا وكذا؛ لا يهمك ولا تأخذك هيبة القول، ولا هيبة التسمية- أيّاً كانت إلى حقٍّ أو إلى باطل-؛ لا؛ التسمية لا تُقدِّم ولا تؤخِّر، ارجع إلى أقوال وعقائد الأشخاص واعرِضها على ما كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم؛ تستبين لك الأمور وتستنير، ولا تتعصب لأحد؛ لأن هذا الذي ستتعصب له؛ لن ينفعك يوم القيامة؛ سيتبرأ منك؛ إنما الذي ينفعك هو أن تجتهد في الوصول إلى ما يحبه الله ويرضاه فقط، وبهذه الطريقة تعرف الطريق الحق الذي رسمه لك نبيك ﷺ، الطريق المستقيم لمّا خطّ خطاً مستقيماً وخطّ على جانبيه خطوطاً وقال هذا صراط الله، هو الصراط الذي سلكه الصحابة فوصلوا إلى مرضاة الله {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}[1] فقط أمر سهل وليس فيه صعوبة، والدين ليس فيه صعوبة والحمد لله، مُيسّر سهل، وما مات النبي ﷺ إلا وتركَنا على البيضاء ليلها كنهارها واضحة صريحة؛ فقط تَعلَّم، تَعلَّم كي تعرف أهل الحق الذين يدعونك إلى الحق، وأهل الباطل الذين يدعونك إلى الباطل؛ الذين يخدعونك ويُلَبِّسون عليك أمر دينك ويستغلونك، وتعرف أهل الحق النَّصَحة

١- [التوبة: ١٠٠]

الذين يريدون أن ينصحوك، وأن يُبيِّنوا لك طريق الحق من طرق الضلال حتى تتَّبع الحق وتحذر من الباطل.

هذا الشيخ محمد بن عبد الوهاب لمّا حارب الشرك والمشركين؛ قامت عليه الدنيا في ذلك الوقت؛ لأن الشرك كان قد عمَّ وطمَّ، ونحن علمنا أنّ الله سبحانه وتعالى يبعث مجدِّداً على رأس كل مائة سنة يجدد للناس أمر دينها.

ما معنى: يجدد للناس أمر دينها؟

لأن الدين قد أفسده الناس وصار عندهم ديناً مهترئاً مُرَقَّعاً مختلِطاً بحق وباطل؛ فيأتِ هذا المجدد فيُجَدد لهم أمر الدين فيُظهر لهم الأمور ويوضح لهم الصراط المستقيم ويُبيّن الحق من الباطل ويفصل كل شيء؛ وهذا الذي فعَله الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مسائل التوحيد والشرك؛ فأمَرَهم باتّباع كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وعبادة الله وحده وترْك عبادة ما سواه، وبيّن لهم ذلك بالأدلة والبراهين والحجج؛ ما قال فقط: اتبعوني وانتهى الأمر؛ لا؛ قال: قال الله، قال رسول الله ﷺ، اقرأوا كتبه؛ هذه كتبه قد درّسناها؛ "الأصول الثلاثة"، "القواعد الأربعة"، "كتاب التوحيد"، وهذا "كشف الشبهات"، اقرأوا، والله لقد قرأنا كتبه بإنصاف من غير أن نتعصب، وعرضنا كلامه على كلام السلف؛ فما وجدْنا له شيئاً يخالف فيه منهج السلف الصالح في دعوته إلى التوحيد ونبْذ الشرك، هذا الذي قاله؛ وجدناه مقرراً عند ابن جرير الطبري في تفسيره في كلام كثير جداً للطبري، نفس الكلام يذكره من هناك، كلام ابن كثير رحمه الله في تفسيره بكثرة موجود هناك، كلام المفسرين لأحاديث رسول الله ﷺ من السلف الصالح رضي الله عنهم؛ وجدناه هناك، كله موجود، ما جاء بدين جديد، لم نجد عنده ديناً جديداً.

لكن من أين أتت كلمة الوهابية؟

طبعاً هم ينسبونها إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فنسبوه إلى الوهابية ويريدون بها هذه. طيب تأتي إلى الوهابية؛ ماذا تريدون بها؟

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

طيب هل هي دعوة حق أم باطل؟ هل أتى بدين جديد؟

نعرض كلامه- وهو مسطر وموجود في كتبه- نعرضه على كتاب الله وسنة رسول ﷺ ومنهج السلف الصالح- وهذا الذي فعلناه-؛ فما وجدنا الرجل قد جاء إلا بـ: قال الله قال رسول الله ﷺ قال السلف الصالح رضي الله عنهم، هذا كتاب "التوحيد" أنفس كتاب للمؤلف رحمه الله، كله هكذا، قد قرأتموه ودرستموه؛ طيب إذاً ما الذي تنكرونه عليه؟! لماذا تسمون الدعوة الوهابية دعوة مخالفة ودعوة أتت بشيء جديد؟ وتزعمون ذلك وتحذّرون الناس؟!

لما فتشنا عن الأمر تبيّن لنا أنّ الصوفية والشيعة هم وراء هذه التسمية؛ لتنفير الناس عن دعوة الشيخ رحمه الله، وبالخصوص الدولة العثمانية؛ كان لها دور كبير جداً في هذا الأمر، هذا الذي يسمونه بالحرب الإعلامية كان لهم دور في هذا الأمر، فنفّروا الناس وزعموا أنّ الشيخ محمد بن عبد الوهاب يحارب الأولياء ويبغضهم، وما شابه من هذا الكلام الباطل.

نحن ندين الله سبحانه وتعالى بمحبة أولياء الله، والشيخ محمد بن عبد الوهاب نفسه هكذا أيضاً؛ يدين الله بمحبة أولياء الله سبحانه وتعالى وتَوَلّيهم؛ لكن بشرط: أن يكون وليّاً فعلاً لله سبحانه وتعالى ومِن غير الغلُوّ فيه؛ ألاّ يُعبَد مع الله سبحانه وتعالى، النبي ﷺ حذّرَنا من عبادته نفسه مع الله سبحانه وتعالى حذّرَنا من الغُلُوّ فيه، فكيف بغيره

من الأولياء، هذا الذي حصل، لكن هم عندما أرادوا أن يغلو في الأولياء وأن يعبدوهم مع الله سبحانه وتعالى؛ رأوا أنّ مَن يخالفهم هذا عدوٌّ لهم وأنه يريد أن يستنقص الأولياء.

يستنقصهم عن ماذا؟ عن الغُلُوّ فيهم؛ هذا حقيقة ما يريدون؛ وهذا الذي ترونه أمامكم من بدعهم وضلالهم وعبادتهم لغير الله سبحانه وتعالى واضح وصريح ما يحتاج إلى كلام، هذه كتبهم موجودة- كتب التصوف- اعرضوها على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ومنهج السلف الصالح؛ تجدونها في عالم ومنهج السلف الصالح في عالم آخر، هم في دين وأولئك في دين آخر؛ ما له علاقة بدين الإسلام، الدين الذي عليه الصوفية والذي عليه الشيعة؛ مشابهٌ جداً لدين اليهود والنصارى وغيرهم من عبدة الأوثان؛ فيجب الحذر من هذا؛ هكذا حَكمنا على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهكذا حَكمنا على دعوة الصوفية والشيعة؛ عرضنا ما عندهم على منهج السلف الصالح رضي الله عنهم، عرضناه على كتاب الله وعلى سنة رسول الله ﷺ وعلى المنهج الذي كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم؛ فهذا الذي بان معنا واتضح بشكل واضح وصريح ليس فيه أدنى شبهة أبداً، لا يشتبه، مريد الحق لا يشتبه عليه الأمر بتاتاً.

فمِن هنا بارك الله فيكم لمّا كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب قوية وانتشرت بين الناس ولاقت قبولاً عند أهل التوحيد؛ حاربها أعداؤه لمّا رأوا أن هذه الدعوة خطيرة على أطماعهم، خطيرة على دنياهم، يريد أن يُنَفِّر الناس عن القبور وعن عبادة القبور التي يتحصلون من ورائها على أموال ودنيا ورياسة؛ فحارَبوه، وصاروا يُظهِرون شبهات للناس وأكاذيب؛ كذبوا عليه كثيراً، وكان هو يُفَنّد هذه الأكاذيب، ويُبيّن ما الذي يقوله وما الذي لا يقوله؛ حتى لا يلتبس الأمر على مَن يريد الحق؛ فبيَّن هذا كله، فكانوا يكذبون عليه وكانوا يُثيرون الشبهات على دعوته، مِن هذه الشبهات ما ذَكَره الشيخ هنا في هذا

الكتاب وفنَّدها حتى يُبيِّن الحق ويفصله عن الباطل؛ فيحيى من حيّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة.

فقال رحمه الله: **(بسم الله الرحمن الرحيم، اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ: أَنَّ التَّوْحيدِ: هُوَ إِفْرادُ اللهِ سُبْحانهُ بالعِبادَةِ)**

عرفنا التوحيد؛ وهو: مِن وحَّدَ يُوَحِّد توحيداً؛ إذا جعل الشيء واحداً.

والتوحيد في الشرع: إفراد الله سبحانه وتعالى بكل ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وقد عرفنا **معنى الربوبية؛ وهو إفراد الله سبحانه وتعالى بالخَلق والمُلك والتدبير.**

العبودية؛ إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة.

الأسماء والصفات؛ إفراد الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته بأنْ نُثبت منها ما أثبت لنفسه، وننفي عنه ما نفى عن نفسه تبارك وتعالى، من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل.

هذا هو التوحيد.

وقد تقول الآن: الشيخ رحمه الله عرّف التوحيد هنا بقوله: إفراد الله سبحانه تعالى بالعبادة، ونحن عرفنا أنّ التوحيد بأقسامه الثلاث وليس قسماً واحداً، والمؤلف رحمه الله عرّف قسماً واحداً؛ فقال: إفراد الله سبحانه تعالى بالعبادة؛ فأين إفراد الله بالخَلْق والمُلك والتدبير، وأين إفراد الله سبحانه تعالى بالأسماء والصفات؟ عندنا ثلاثة أقسام، ذكر الشيخ رحمه الله قسماً واحداً؛ هذا يُشكِل.

لا؛ لا يُشكِل؛ فقد قال:

(وهو دِينُ الرُّسُلِ الذي أرْسَلَهُم اللهُ به على عِبادِهِ)

أي: التوحيد دين الرسل الذي أرسلهم اللهُ به على عباده، فهنا يتضح الأمر: أنّ المؤلف رحمه الله حين قال: إفراد الله سبحانه تعالى بالعبادة؛ أراد مِن هذا أنّ هذا النوع خاصة هو الذي بعث الله سبحانه وتعالى به الرسل.

لماذا؟

لأن أكثر نوع من أنواع الشرك التي وقع الناس فيه هذا النوع؛ فكان الناس يعبدون غير الله سبحانه وتعالى، يعبدون الأوثان وانتشر هذا جداً في الأرض، فالخلل في توحيد الربوبية والأسماء والصفات كان عندهم أقل من هذا بكثير، فالشرك في العبادة هو الذي كان عامّاً وطامّاً؛ لذلك أرسل الله تبارك وتعالى الرسل بهذا النوع من التوحيد؛ فلذلك خصّه المؤلف بالذكر، والنبي ﷺ عندما جاء إلى قومه ماذا قال لهم؟ قال: "قولوا لا إله إلا الله تفلحوا" أي لا معبود بحقٍّ إلا الله؛ الدعوة إلى التوحيد، مباشرة دعاهم إلى إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة؛ لأنهم كانوا يؤمنون أنّ الله سبحانه وتعالى هو الخالق الرازق المدبر، وفي الجملة يؤمنون بالأسماء والصفات، لكن في الألوهية، في العبادة؛ لا؛ كانوا يشركون فيعبدون مع الله غيره، فيتقربون إلى الأصنام؛ يدعونها، يتوسلون بها، ويستغيثون بها، ويستعينون بها، يذبحون لها، ينذرون لها؛ يتقربون إليها بأنواع القُرَب، فجاءهم النبي ﷺ؛ فقال: "قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"؛ الفلاح الدنيوي والأخروي؛ تفوزوا بما عند الله سبحانه وتعالى من خيرات دنيوية وأخروية، قال: "قولوا لا إله إلا الله"، لكن كفار قريش كانوا عرباً أقحاحاً، يعرفون معنى الكلمة لما تخرج، ففهموا ما أراد النبي ﷺ حين قال لهم: "قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"؛ فهموا أن معناها: لا معبود بحق إلا الله؛ يعني: اتركوا عبادة غير الله سبحانه وتعالى؛ لذلك جاء في قصة هرقل: أنه لما سأل أبا سفيان؛ فقال له: (بماذا يأمرونكم؟)، فقال أبو سفيان يقول: (اعبدوا الله وحده ولا تشركوا

به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم) فقال له هرقل: (سألتك فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان)؛ ففسر هرقل قول أبي سفيان: (واتركوا ما يقول آباؤكم)؛ لأن هذا ما كان يقوله آباؤهم؛ إذن فهموا المعنى الذي أراده النبي ﷺ، فردوا عليه وقالوا: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}[1] يتعجبون كيف تجعل الآلهة- المعبودات- معبوداً واحداً؟

هذا المعنى الذي أراده المؤلف رحمه الله تعالى؛ أن التوحيد هو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة؛ يعني: هذا النوع من التوحيد خاصة هو الذي بُعِثَتْ به الرسل؛ لأن الشرك فيه كان أكبر وأعظم من غيره من الأنواع.

(وهو دين الرسل)؛ أي: هذا النوع من التوحيد هو دين الرسل، يعني الذي أُرسِلَتْ به الرسل، الذي أرسلهم الله إلى عباده.

ما الدليل على هذا؟

الدليل قول الله تبارك وتعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}[2] لاحِظ هذه الآية؛ تفسر لك المعنى الذي جاءت الرسل به:

{ولقد بعثنا ..} في ماذا؟ {في كل أمة}؛ إذن الأمم جميعاً قد جاءتهم رسلٌ كثر، وجميع هؤلاء الرسل ماذا كانت دعوتهم؟ {أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}؛ فبيَّن لك هنا: {أن اعبدوا الله}؛ فسَّر لك ما بعثَ الله سبحانه وتعالى به الرسل؛ وهو: {أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} يعني اعبدوا الله ولا تعبدوا معه غيره؛ هذه دعوة الرسل جميعاً وبهذا أرسَلهم الله سبحانه وتعالى.

١- [ص:٥]

٢- [النحل: ٣٦]

وقال عز وجل: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}[1]، هذا الوحي الذي يأتيهم وبهذا أرسَلهم: {أنه لا إله إلا أنا} أي لا معبود بحق إلا أنا؛ إلا الله سبحانه وتعالى، {فاعبدون} أي: اعبدوه وحده ولا تعبدوا معه غيره؛ إذن هذه هي دعوة الرسل؛ فهل صدق الشيخ أو لم يصدق فيما قال؟

بل صدق؛ وهذه الأدلة واضحة وصريحة.

قال: **(فأولهم نوحٌ عليه السلام؛ أرسله اللهُ إلى قومه، لما غلوا في الصالحين: ودّاً، وسواعاً، ويغوثَ، ويَعوقَ، ونسراً)**

فنوح أول الرسل؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ}[2]؛ فكان هو الأول- أول الرسل-؛ لأن الناس قبل ذلك كانوا على التوحيد، من عهد آدم عليه السلام إلى قوم نوح- قبل إرسال نوح-، وحصل الشرك في قوم نوح- في آبائهم وأجدادهم- بسبب الغلو في الصالحين، كما مر معكم في كتاب التوحيد؛ كان فيهم رجال صالحون، فلما ماتوا جاءهم الشيطان وزيَّن لهم أن يصنعوا لهم التماثيل، فصنعوا لهم التماثيل وجعلوها في ناديهم، ثم بعد ذلك لما نُسِيَ العلم -لاحظ- لما نُسي العلم؛ ظهر الجهل ولم يعد أحد من الناس يعرف التوحيد من الشرك؛ جاءهم الشيطان ولبَّس عليهم أن يعبدوا هذه الأصنام فعبدوها؛ ومن هنا بدأ الشرك في عبادة غير الله سبحانه وتعالى، فأشرَكوا مع الله غيره؛ فبعث الله الرسل، وكان نوح عليه السلام أول الرسل.

وجاء في الصحيح في قصة الشفاعة أنّ الناس يأتون إلى نوح فيقولون له أنت أول رسول أرسَلَه اللهُ إلى أهل الأرض؛ فهذا واضح وصريح أنه أول الرسل.

١- [الأنبياء: ٢٥]

٢- [النساء: ١٦٣]

ونلاحظ أن المؤلف لم يذكر هنا الأدلة؛ لأنه ذكرها في الكتب السابقة، لكن كل كلمة يذكرها هنا؛ عليها دليل بيَّنَه في كتبه الأخرى.

قال: (أرسله الله إلى قومه فلما غلوا في الصالحين..)

غلوا من الغلو؛ وهو: مجاوزة الحد.

والرجال الصالحون نحبهم، نحترمهم، نواليهم، نتعاون معهم على البر والتقوى، وليس أكثر من هذا؛ ليس له حق في العبودية- أنْ نعبده وأن نتقرب إليه-؛ لا؛ هذا غلو وهو محرَّم؛ وهذا هو سبب الشرك.

قال: (لما غلوا في الصالحين ود وسواع ويغوث ونسر..)؛ هذه أسماء رجال صالحين- كما ذكرنا لكم القصة-؛ كانوا في قوم نوح، فلما ماتوا صنعوا لهم التماثيل وعكفوا على تماثيلهم وعبدوها.

فأول الرسل نوح عليه السلام؛ أرسله الله إلى قومه، لما حصل هذا الغلو في الصالحين.

قال: **(وآخرُ الرُّسُلِ محمد ﷺ)**

دليل ذلك قول الله تبارك وتعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}[1] أي آخرهم فلا نبي بعد النبي ﷺ، وجاء في الحديث: "أنا آخر الأنبياء لا نبي بعدي".

قال: **(وهو الذي كَسَرَ صُوَرَ هؤلاءِ الصالحين)**

لأن هؤلاء الصالحين، لما بنوا لهم صوراً وتماثيل؛ بقيت هذه الصور والتماثيل في قريش حتى جاء النبي ﷺ بدعوة التوحيد، فلما فتح مكة؛ كسر هذه التماثيل في فتح مكة، وهذا

١- [الأحزاب: ٤٠]

الحديث موجود في "الصحيحين"[1]: أن النبي ﷺ دخل مكة وكسر التماثيل الموجودة فيها؛ فهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين.

قال: **(أرسَلَه الله إلى أناسٍ يَتَعَبَّدونَ وَيَحُجّونَ وَيَتَصَدَّقونَ ويذكرونَ الله كثيراً)**

أرسل الله سبحانه تعالى نبيه إلى مَن؟ إلى كفار قريش.

وماذا كان كُفْر كفار قريش؟ بماذا كفروا؟، ولماذا أرسل الله نبيه إليهم؟ هل كانوا ينكرون وجود الله؟ لا؛ كانوا يثبتون ذلك كما سيأتي في الأدلة.

هل كانوا يكفرون بالأسماء والصفات وغيرها؟ سيأتي بيان هذا؛ لأن هذا في الجملة كله ما كان عندهم فيه إشكال؛ لكن في ماذا كان شركهم؟

حتى عبادة الله سبحانه وتعالى كانوا يعبدونه؛ لكن الشرك عندهم أين؟

كان الشرك عندهم في عبادة غير الله؛ هنا جاء الشرك؛ فكانوا يعبدون الأصنام، يعبدون الأوثان مع الله سبحانه وتعالى؛ فيدعونها ويذبحون لها وينذرون لها ويستغيثون بها؛ هنا كان شركهم؛ لذلك لما جاءهم النبي ﷺ قال: "قولوا لا إله إلا الله تفلحوا".

فهنا قال المؤلف: (أرسله الله إلى أناس يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً)؛ لكن هل كانت هذه العبادات تنفعهم عند الله؟ طبعاً لا؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ}[2]، فأعمالك إن وُجِد عندك الشرك؛ لا تنفعك عند

١- البخاري (٤٢٨٧)، ومسلم (١٧٨١) عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح، وحول البيت ستون وثلاث مائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد».
وفي "الأوسط للطبراني" (٢٣٠٣) بزيادة: (فتَسَاقَطُ على وجهها).

٢- [الزمر: ٦٥]

الله سبحانه وتعالى، حتى لو تعبدتَ لله سبحانه وتعالى، وكنتَ مشركاً؛ لا ينفعك، يحبط عملك ولا ينفع، وفي حديث عائشة رضي الله عنها في "صحيح مسلم" قالت : (قلت: يا رسول الله ! ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين؛ فهل ذاك نافعه؟ قال: "لا ينفعه؛ إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين"[1])، وقال الله سبحانه وتعالى: {وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ}[2]، وقال: { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا }[3].

ومعنى قول رسول الله ﷺ: "إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين"؛ أي: أنه كان لا يؤمن بالبعث فكان كافراً، ومع الكفر لا ينفع عمل عند الله سبحانه وتعالى.

قال: **(وَلَكِنَّهُمْ يجعلونَ بَعْضَ المَخْلوقاتِ وَسائِطَ بينهم وبين الله)**

هذا هو الإشكال عند كفار قريش؛ يعني أنهم كانوا يعبدون هذه الأصنام لتُقربهم إلى الله وتكون واسطة بينهم وبين الله، فهم يُقرّون أنّ هذه الأصنام ليست بمنزلة رب العزة تبارك وتعالى، فهي أدنى؛ لكنهم يقولون نعبدها حتى تُقرّبنا إلى الله سبحانه وتعالى زلفى، إذن هم لا يعتقدون أنهم هم الذين يخلقون ويرزقون ويدبرون؛ ولكنهم يريدون منها أن تتوسط لهم عند الله سبحانه وتعالى، ودليل ذلك: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}[4]، هذا نطقوا به هم، وقالوا: {هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ}[5]؛ هذا الدليل، إذن هم يعبدونها لهذا.

١- أخرجه مسلم (٢١٤).
٢- [التوبة: ٥٤]
٣- [الفرقان: ٢٣]
٤- [الزمر: ٣]
٥- [يونس: ١٩]

قال: **(يقولون: نريدُ منهم التَّقَرُّبَ إلى اللهِ، ونريد شفاعتهم عنده؛ مثل الملائكة وعيسى ومريم وأناس غيرهم من الصالحين)**

يعني أنهم يقولون نحن نعبد هذه الأصنام كي تقربنا عند الله سبحانه وتعالى.

قال: **(فبعث الله محمداً يُجَدِّدُ لهم دينَ أبيهم إبراهيم عليه السلام)**

إبراهيم عليه السلام كان على التوحيد وكانت دعوته على التوحيد، وإسماعيل ابنه كان على التوحيد، وهؤلاء الذين كانوا في مكة من قريش؛ قبائلهم ممتدة إلى إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام؛ لكنهم حرّفوا وغيّروا وبدلوا دين إبراهيم عليه السلام، وأدخَلوا فيه الشرك؛ فبعث الله تبارك وتعالى نبينا محمداً ﷺ كي يجدد لهم دين إبراهيم عليه السلام؛ يعني كي يدعوهم إلى التوحيد التي هي دعوة إبراهيم عليه السلام وجميع الرسل.

قال: **(ويخبرهم أنّ هذا التَّقَرُّبَ والاعتقادَ؛ مَحْضُ حَقِّ اللهِ تعالى، لا يَصْلُحُ منه شيءٌ لغيرِ الله؛ لا لَمَلَكٍ مُقرَّبٍ، ولا لنبيٍّ مُرْسَلٍ؛ فَضْلاً عَنْ غَيْرِهِما)**

هذه العبادات التي تصرفونها للأصنام لا يجوز صرفها لغير الله سبحانه وتعالى، لا لملَك مقرَّب ولا لنبي مرسَل فضلاً عن غيرهما؛ فأعظم المخلوقات ملَكٌ مقرَّب إلى الله سبحانه وتعالى كجبريل، ونبيٍّ مرسَل كنبينا محمد ﷺ؛ هؤلاء لا يجوز صرف العبادة لهم؛ فغيرهم من باب أولى.

الله سبحانه وتعالى كان يرسل الأنبياء والمرسلين متتابعين للناس؛ حتى يخرجوهم من الظلمات إلى النور، من الشرك إلى التوحيد دائماً؛ حتى كان آخرهم نبينا ﷺ، ولا يوجد بعد ذلك أنبياء؛ لكن المجددين من هذه الأمة علماء أفاضل، على رأس كل مائة سنة يبعث الله سبحانه وتعالى واحداً أو أكثر يجدد لهذه الأمة أمر دينها، وعلى هذا الأمر إلى قيام الساعة.

وهذه الدعوة دعوة التوحيد هي أصل دعوة الجميع من الأنبياء والمرسلين ومن اتّبعَهم بإحسان.

قال: **(وإلا فهؤلاء المشركونَ يشهدونَ أنّ الله هو الخالقُ وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا هو، ولا يدبِّر الأمرَ إلا هو، وأنّ جميعَ السموات ومن فيهن، والأرضينَ السبعَ ومن فيهن؛ كلهم عبيده وتحت تَصَرُّفِهِ وقَهْرِهِ)**

يعني يريد أن يقول لك هنا: أنّ هؤلاء المشركين الذين بُعِث فيهم رسول الله ﷺ كانوا يُقِرّون بأنّ الله وحده هو الخالق وأنه خلق السموات والأرض.. إلخ؛ فتوحيد الربوبية كان عندهم مقرَّراً؛ وسيذكر المؤلف الأدلة.

قال الله سبحانه وتعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}[1]، وقال:{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}[2]، والآيات في هذا المعنى كثيرة؛ وهو معنى ما ذكَره المؤلف رحمه الله.

قال رحمه الله: **(فإذا أردت الدليل على أنّ هؤلاء الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يشهدون بهذا؛ فاقرأ قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}[3])**

إذن هم كانوا يقرّون بربوبية الله سبحانه وتعالى، وقد أقرّوا هنا: {فسيقولون الله}؛ {فقل أفلا تتقون} يعني أفلا تتقون الله سبحانه وتعالى؟ وبما أنكم تقرون أنه هو الذي يفعل كل

١- [الزخرف: ٩]

٢- [الزخرف: ٨٧]

٣- [يونس: ٣١]

هذا؛ فكيف تعبدون معه غيره؛ أفلا تتقون الله وتتركون عبادة الأوثان وتعبدونه وحده؛ كونه هو الذي يفعل هذه الأشياء التي ذُكِرت؟

قال: (**وقوله {قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ* قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ* قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ}**[1])

أي ليقرأ قوله تعالى: {قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل افلا تذكرون}، يعني: أفلا تتعظون وتتركون عبادة غير الله، فتعبدونه وحده؛ كونه هو الذي له ملك الأرض وما فيها؟ {قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون}؛ إذن هم كانوا يقرّون بربوبية الله في كل هذا، {قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه} يعني: يحمي ولا يحمى عليه {إن كنت تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون}؛ أي: تُخدعون وتُصرَفون عن الحق؛ أي: كيف تُخدعون وتُصرفون عن الحق، وكيف تخيل إليكم وخُدعتم بأنه باطل.

قال: **(وغير ذلك من الآيات)**

أي: واقرأ غير ذلك من الآيات؛ آيات كثيرة تدل على أنّ كفار قريش كانوا يقرون بربوبية الله سبحانه وتعالى، ولم يكن شركهم من هذه الجهة؛ بل من جهة توحيد العبادة.

قال: **(فإذا تَحَقَّقْتَ أنَّهم مُقِرُّونَ بهذا، ولم يُدْخِلْهُمْ في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ)**

١- [المؤمنون: ٨٤-٨٩]

يعني فإذا تحققتَ أنهم يقرون بهذا- يعني كفار قريش مقرون بتوحيد الربوبية- ومع ذلك لم يدخلهم هذا في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ؛ لأن التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ هو ترك عبادة الأوثان وعبادة الله وحده؛ لكن توحيدهم في الربوبية لم يجعلهم من أهل التوحيد؛ بل هم كفار مشركون، لماذا؟ لأنهم أخَلّوا بالنوع الثاني؛ هذا.

قال: **(وعرفتَ أنّ التَّوْحيدَ الذي جَحَدوه هو توحيدُ العبادةِ؛ الذي يسميه المُشْرِكونَ في زماننا: الاعتقاد)**

يعني في وقته كانوا يسمون هذا: الاعتقاد وهو توحيد العبادة وهو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة.

قال: **(كما كانوا يدعون الله سبحانه وتعالى ليلاً ونهاراً، ثم منهم من يدعو الملائكةَ لأجلِ صَلاحِهِمْ وقُرْبِهِمْ من الله؛ ليشفعوا له)**

يعني يدعون الله سبحانه وتعالى، لكن يدعون معه غيره مثل الملائكة؛ لأنهم صالحون وقريبون من الله سبحانه وتعالى؛ فيدعونهم كي يشفعوا لهم عند الله، فالأمر الذي نهاهم الله سبحانه وتعالى عنه فعلوه.

قال: **(أو يدعو رجلاً صالحاً مثل اللات)**

واللات أصلاً مأخوذ من اسم لشخص كان يلتُّ السويق؛ يعني يصنع طعاماً للحُجّاج على صخرة؛ فقالوا: هذا رجل كان صالحاً؛ فعبدوه كي يشفع لهم.

قال: **(أو نبيّاً مثل عيسى، وعرفتَ أنّ رسول الله ﷺ قاتلهم على هذا الشِّرْكِ)**

قاتَل من؟ هل قاتل كفار قريش على توحيد الربوبية؟ لا؛ إنما على توحيد الألوهية؛ على هذا الشرك؛ كانوا يعبدون الأصنام من أجل أن تقربهم إلى الله زلفى؛ هذه الحقيقة لابد أن

تفهمها جيداً؛ لأن الكثير من الشبهات التي ستأتي متعلقة بهذه المقدمة التي يذكرها لك المؤلف.

قال: **(ودعاهم إلى إخلاصِ العِبادةِ لله وحده)**

أي أن يعبدوا الله وحده ولا يعبدوا معه غيره.

قال: **(كما قال تعالى: {فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}[1])**

وتقدم معكم أن الدعاء قسمان؛ دعاء مسألة ودعاء عبادة؛ والدعاء هنا يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة؛ تكون لله سبحانه وتعالى.

(وقال تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ}[2] وتَحَقَّقْتَ أن رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدعاءُ كله لله)

يعني العبادة كلها؛ عبادة مسألة أو عبادة خضوع وتذلُّل له بأصناف العبادات؛ كله لله سبحانه وتعالى وحده لا لغيره، ومِن ذلك- من هذا الدعاء؛ أي: من هذه العبادات- كما جاء في الحديث "الدعاء هو العبادة" كما في الآية أيضاً؛ فتارة يطلقون الدعاء على دعاء المسألة كما هو منتشر اليوم عند الناس، وتارة يطلق الدعاء على العبادة نفسها؛ فأي عبادة تدخل في هذا الدعاء.

قال: **(والذَّبْحُ كُلُّه لله، والنذرُ كله لله، والاستغاثةُ كلها بالله)**

هذا التفصيل الذي ذكرناه سابقاً في كتاب التوحيد.

١- [الجن: ١٨]

٢- [الرعد: ١٤]

قال: (وجميعُ أنواعِ العبادات كلها لله، وعرفت أنَّ إقْرارهم بتوحيد الربوبية لم يُدْخِلْهُمْ في الإسلام، وأنَّ قَصْدَهُمُ الملائكةَ، والأنبياءَ، والأولياءَ؛ يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك؛ هو الذي أَحَلَّ دِماءَهُمْ وأَمْوالَهُمْ)

لأنهم عبدوا مع الله غيره.

قال: (عَرَفْتَ حينئذٍ التوحيدَ الذي دَعَتْ إليه الرُّسُلُ وأبى عَنِ الإقْرارِ به المشركون)

إذن اتضَح لك الأمر، وعرفتَ ما معنى التوحيد الذي جاء به النبي ﷺ، وما هو الشرك الذي كان عليه مشركو قريش، واتّضح لك الأمر؛ حتى لا تقع في المحذور، فالأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (تُنقَضُ عرى الإسلام عروة عروة، عندما ينشأ في الإسلام نشْ لا يعرف الجاهلية)؛ ينشأ في الإسلام أناس لا يعرفون الجاهلية، لا يعرفون معنى الشرك ولا يعرفون معنى التوحيد، فيقعون في الشرك؛ لأنهم لا يعرفونه، ينقضون التوحيد؛ لأنهم لا يعرفونه، وهذا الحاصل اليوم عند كثير من الناس، لا يعرفون أنّ دعوة النبي ﷺ أول ما جاءت أصلاً جاءت لدعوة الناس إلى ترك عبادة غير الله، وإلى صرف العبادة لله وحده لا شريك له، لا يعرفون بأنّ كفار قريش كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، كانوا يعتقدون بأن الله هو الخالق هو الرازق هو المدبر، كانوا يعتقدون هذا؛ ومع ذلك كانوا كفاراً قاتلهم النبي ﷺ واستحَلَّ دماءهم، ومن مات منهم على هذا الشرك؛ فهو مُخلَّد في نار جهنم، ولم ينفعهم هذا التوحيد؛ لأن الله سبحانه لا يقبل من العبد إيماناً حتى يكون مُقرّاً بأنواع التوحيد كلها التي قررها في كتابه وفي سنة نبيه ﷺ.

هذا هو المراد الآن من هذه المقدمة؛ لأن هذه المقدمة وفهم هذه الحقيقة يتوقف عليه فهم الشبهات الآتية جميعاً. والله أعلم.